

الإنسان بين شهوة الخلود وجبرية الفناء: قراءة في رواية: "فساد الأمكنة" لصبري موسى

فايز صلاح قاسم عثمانة⁽¹⁾

الملخص: تمثل رواية فساد الأمكنة Corruption of places جملة من التصورات التي يعيشها الإنسان في هذا الكون؛ عمد الراوي إلى ربطها بمرتكزات أساسية لا غنى للوجود عنها، هي: الزمان والمكان والإنسان Time, space and man؛ وهي بمثابة مكون ومرتكز حقيقي في بنية الرواية، وكذلك حقيقة التحول والتغير والتبدل من خلال تلك المرتكزات التي يعيشها الإنسان في صراع دائم بين كينونته وثباته من أجل البقاء. مثلٌ فيها مأساة نيكولا - وهي في الحقيقة - مأساة الإنسان في كل زمان ومكان، يقضي حياته متردداً بين شهوة الخلود Lust of immortality ترغبه في البقاء، فيعمل متحدياً قهر الزمان وسجن المكان، وجبرية الفناء And the abject of the courtyard تذكره بحقيقته؛ فيرتد على نفسه يهدم ما بنى ويخرب ما شيد، تعد ثنائية الخلود والفساد Dual eternity and corruption سلكاً ناظماً يشد عالم "فساد الأمكنة" إلى بعضه البعض، ويخترق مختلف جوانبه ليخلق فيها الصراع والتوتر. إن البحث يسعى إلى الكشف عن تلك الكلمات التواصلية - التي وردت في الرواية - من خلال علاقتها باللغة، وتبيان المشاركة الفاعلة، بين: البنية، والقراءة، والاندماج Structure, reading, and integration في عملية دلالية واحدة؛ لأن ممارسة القراءة إسهام في التأليف - حسب وجهة نظر المنهج النصي Textual Approach المتبع في الدراسة... وتم تتبع تلك المتتاليات والفصول والجمل كمقاربة أولية، وتتبع المجموعات طبقاً للعناصر والوحدات المكونة لها دلالياً، وهو ما هدف إليه البحث، مثل: نمط الشخصيات، والمكان والزمان، و Style of characters, place and time وغيرها... لتدل تلك الفواعل النصية Scripting على أهمية البحث، وتبرهن على ما تم عرضه في مادة البحث.

الكلمات المفتاحية: ثنائية الخلود، الزمان والمكان، ثنائية الخلود والفساد، الشخصيات الروائية، علم النص، منهج علم النص

Man between the lust of immortality and the inevitability of annihilation: Reading in the novel "The corruption of places" by Sabri Musa

Fayez S. Q. Athamneh

Abstract: The novel "Corruption of Places" is a collection of concepts that man lives in this universe; the narrator has linked it to essential elements that are indispensable to existence: time, space and man; it is a component and a real basis in the structure of the novel, as well as the reality of transformation and change through these pillars which a man lives in a constant struggle between his being and his steadfastness to survive. In which the tragedy of man, in fact, is the tragedy of man at all times and places. He spends his life hesitating between the lust of eternity and his desire to stay. He acts in defiance of conquering time and imprisoning the place. Eternity and corruption are a tight wire that brings the world of "corruption of places" to each other and penetrates its various aspects to create conflict and tension. These communicative words were revealed through their relationship with language, showing active participation between: structure, reading, and integration into one semantic process, because the practice of reading is a contribution to authorship according to the textual approach that the author followed in this study. The sequences, chapters and sentences have been traced as an initial approach, and the groups have been traced according to the elements and structures that semantically form it, such as: the pattern of characters, place and time, and others ... to indicate these textual facts on the importance of research, and demonstrate what was presented in the research article.

Keywords: Dual eternity, Time and place, Dual eternity and corruption, Characters, Text science, Methodology of text

(1) أستاذ مساعد، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل - قسم اللغة العربية - المملكة العربية السعودية، fathamneh@kfu.edu.sa

المقدمة

تروي "فساد الأمكنة" للكاتب المصري صبري موسى، حكاية رجل مأساوي، ولد بالقوقاز، أعطته أمه اسم قديس قديم "نيكولا"، هام منذ طفولته وهمّه أن "يسرق المعرفة من بحر التجوال"، فلم يجد له في الأرض مستقراً. وفي إحدى المدن الإيطالية تزوج من فتاة تدعى إيليا، أرادت أن تسمّره في الأرض، وتقطع عنه الترحال، فأنجبت له بنتاً أسماها إيليا الصغرى؛ ليكرمها ويعوضها عن حبه الذي تحول إلى صداقة، بعد أن تعرّف على المهندس "ماريو" الذي أغراه بالرحيل إلى صحراء مصر وجبالها للبحث عن المعادن، فسافر نيكولا، وهناك أدهشته الصحراء، وفتنته الجبال فاستقر. وبعد سنوات جاءت زوجته إيليا مع ابنته إيليا الصغرى لإغرائه بالعودة، ولكنه أبى، فبيّست زوجته منه، وعادت إلى إيطاليا، أما ابنته فبقيت معه لتكون سبب سعادته ومأساته.

فقد كانت تدرس في القاهرة وتقتضي عطلها في صحرائها؛ كزهرة برية تزين مدينته التي أنشأها. وحدث أن مرّ ملك البلاد وحاشيته بمدينة نيكولا، فقصوا فيها ليلة، تمتعوا فيها بمشاهدة وليمة جنسية بين عروس البحر وبحار مغامر، مما أثار شهية الملك للجماع. فلم يكن هناك أحسن من إيليا الصغرى "علفاً لأسماك الشهوة"؛ فكاد لها الملك واغتصبها، ثم أعيدت إلى حجرة والدها نيكولا، الذي بات ليلته يهذي من الحمى، فرأى في الحلم أنه اغتصب ابنته، ولمّا أفاق رآها متهاككة على فراشها فصّدق ما كان رأى، وحاول أن ينتحر بتقديم نفسه علفاً لأسماك القرش، ولكنه أنقذ فعاش يعذبه ضميره وخاصة أنه يرى جنيناً ينمو في بطن ابنته فيخاله من صلبه.

ولما وضعت إيليا الصغرى ولداً سرقة منها وأطعمه للصقور، ثم دفنها وهي حية في باطن الجبل "بانهييار صخري" وبقي وحيداً يمارس طقوس عذابه في صحراء الدرهيب، يشرب خمر "السبرتو" من زجاجة فارغة، ويلعب نفسه الشطرنج، ويسبح بعقله في الملكوت...⁽¹⁾

الشخصيات: مواجهة البشر لأحكام القدر: The characters: confronting human beings with fate

إنّ قهر الموت وحتمية الفناء inevitability of the courtyard وأسر المكان وعنف الزمان؛ حقائق مأساوية لا تنكر الإنسانية وجودها، وإنما تختلف في طريقة مواجهتها، وعلى أساس هذا الاختلاف في أسلوب المواجهة تختلف شخصيات رواية: "فساد الأمكنة" وتتمايز فتنقسم إلى ثلاثة أصناف، تتتابع فيما بينها، ولكنها في الوقت نفسه تتفاعل؛ لتؤلف تقاسيم سمفونية الألم، وتشكل ألوان لوحة المأساة. إن شخصية نيكولا تشبه شخصية سيزيف من جانب، كما كانت تشبه شخصية المسيح من جانب آخر، حيث كان يحمل من الآلام والعذابات ما تنوء بحمله النفس، وكان يتلقى الضربة تلو الأخرى في رضا واستسلام تام، فما هو ذا يترك موطنه ويهجر زوجته ويفقد أصدقائه واحداً تلو الآخر، ثم تكتمل طقوس عذابه حين يأتي الملك إلى الصحراء....⁽²⁾

شخصيات مستسلمة: Characters surrendering هي شخصيات سلبت القدرة على الفعل بحكم تحولها إلى موضوع للاغتصاب، وهي شخصيات أنثوية، رأى صبري موسى أن قدرها أن تكون "علفاً لأسماك الشهوة" ومتلقياً للفعل الجنسي. ومن هنا كانت إيليا الكبرى زوجة نيكولا⁽³⁾ مجرد وعاء لتفريغ الشهوة؛ فقد كان أول لقاء لها مع نيكولا لقاء جنسياً في مكان خلفي من مطعم والدها، ولئن تطور هذا اللقاء إلى زواج فإن هذا الزواج لم يمكّن إيليا من امتلاك نيكولا، الذي كان همّه الترحال في طريق سفره الطويل. وفي السياق نفسه كانت السيدة إقبال هانم مجرد هدية متعة؛ يقدمها زوجها الباشا لمن يساعده عبر قضاء شؤونه وتحقيق مصالحه: كالمهندس ماريو الذي واقعها على

¹ صبري موسى، فساد الأمكنة. ط1، بيروت: دار التنوير ودار المثلث، ص: 45 وما بعدها، 1982م.
² أفرد بروب فصلاً كاملاً لفعل الشخصية... للمزيد بهذا الخصوص انظر فلاديمير بروب، مورفولوجية الحكاية الشعبية الخرافية الروسية. ترجمة: إبراهيم الخطيب، الدار البيضاء، ط1، ص: 77، وما بعدها، 1986.
³ للمزيد انظر، وجيه السيد، سرديات الرواية العربية. ص: 153 وما بعدها، ط1، الكويت: آفاق للتوزيع والنشر، 2014م.

رمال البحر، ونيكولا الذي ضاجعها في باطن الجبل، والملك الذي قضى منها وطراً ليلة عروس البحر⁽⁴⁾

ولئن كانت إقبال هانم راغبة بدور ما في الفعل الجنسي، فإنها لم تكن تحقق منه سوى متعة عابرة، أما ذاتها فقد كانت تفقدها أمام كثرة المغتصبين؛ ولم تكن إيليا الصغرى بمعزل عن جور الاغتصاب المحموم، بل كانت أكثر الإناث إثارة لشهوة المغتصبين، بداية من الخواجة أنطوان الذي ربّاه صغيراً وعاش يحلم بالزواج منها، فقاد لها ليغتصبها الملك ثم يتزوجها هو لستر الفضيحة، وتم له ما أراد... فقد اغتصب الملك إيليا اغتصاباً شنيعاً، هدم به جسدها الفتى، واغتال طفولتها البريئة. والملاحظ أن فعل الاغتصاب الذكوري للأنتى المستسلمة لم يتوقف على النساء فحسب؛ بل امتد ليشمل أنثى الحيوان، كان ذلك مع عروس البحر، التي أجبر عبد ربه كريشاب على اغتصابها، ليفي بقسمه القديم ويثأر لبني قبيلته الذين أوقعت بهم، وليمتع الملك وحاشيته بمشاهدة اغتصاب جنسي شاذ، والاعتصاب ليس أفة بشرية فحسب؛ لكن هو أيضاً شريعة حيوانية، تشهد عليها كثرة جثث أنثويات الإبل التي كانت تموت في وادي الجمال من "شدة الجماع"، ويمتد فعل الاغتصاب ليسيطر على نظرة الإنسان إلى الطبيعة، التي تتحول عنده إلى امرأة يباشرها ليغتصب منها جواهرها وكنوزها: "ومن الشخصيات التي رسمها الراوي بشكل أسطوري أيضاً شخصية عبد ربه كريشاب، الذي ينتمي إلى قبيلة الكريشاب حاملة تقاليد الفراعنة في صيد الأسماك بالقضبان والحراب"⁽⁵⁾

واعتماداً على ما سبق، يتضح أن هذه الشخصيات الأنثوية: Female characters إيليا الكبرى، وإيليا الصغرى، وإقبال هانم، وعروس البحر، والصحراء البكر، وجبال الدرهب؛ تتفق في كونها شخصيات مستسلمة لا تأتي الفعل ولكن تتلقاه بما هي موضوع لفعل الاغتصاب، وهو فعل وجودي، يأتيه الإنسان لا لتحقيق المتعة فحسب بل لإثبات الذات To self-affirmation وتجسيم القدرة على الفعل ومجابهة العدم، وهو ما يقوم به الصنف الثاني من الشخصيات؛ ومثل هذا الحديث لوحظ عند اليوسفي، عندما تحدث عن سيرة عبد القادر الجنابي، قائلاً: "ومثله تعاود الظهور المشاهد الجنسية الإباحية، بل إنها تصبح نوعاً من السفر باتجاه الأقصي، حاملة المتلقي في سفر أيروسي، يهدم المحظور والممنوع، ويستدرج إلى النور المسكوت عنه، والمكبوت، والمقموع؛ وبذلك لا تكون الدعارة مقصودة لذاتها، بل تعلن عن نفسها في شكل فعل مقاوم لكل ما يغرب الكائن عن نفسه"⁽⁶⁾

شخصيات مغتصبة: Harassment figures هي شخصيات ذكورية تسعى إلى الفعل، تتميز بالأناثية، وتسعى إلى تحقيق مصالحها وإن كان ذلك باغتصاب الآخرين، وهذه الفئة تمثلها شخصيات أجنبية جاءت إلى مصر زمن الاستعمار حاملة بالثروة والمال، وشخصيات محلية يقودها نفس الحلم، مما جعلها تتحالف مع هذه الشخصيات الأجنبية؛ لاغتصاب المعادن من صحراء الدرهب، بعد اقتضاض بكارتها بالمتفجرات وسواعد العمال الأشقياء، الذين لم يسلموا من استغلال هؤلاء واغتصاب قوتهم مقابل "قروش قليلة"، والملاحظ أن هذه الشخصيات المغتصبة لا تنهون في سبيل تحقيق مصالحها؛ لكنها تدفع المقابل مهما كان غالياً، فقد رضي الخواجة أنطوان بتغيير دينه من المسيحية إلى الإسلام وتغيير اسمه ليصبح الخواجة عبدالله، ليتمكن من الطلاق من زوجته والزواج من إيليا الصغرى، التي أهدى بكارتها إلى ملك البلاد؛ ويعد ملك البلاد مثلاً نموذجياً لهذه الفئة المغتصبة، فهو أشدهم حرصاً على تحقيق متعته، وإن كانت على حساب كرامة الآخرين، مثل: عبدالله كيرشاب، الذي أجبر على مواجهة سمكة ميتة ليتسلى الملك بالمشاهدة؛ ومثل: إيليا الصغرى التي اقتضت بكارتها ليتمتع الملك بالموافقة: "في الرواية تصوير نادر لانحلال الارستقراطية القديمة التي

⁴ للمزيد بخصوص خصائص الشخصية الرئيسية، انظر محمد آيت ميهوب، الرواية السير ذاتية في الأدب العربي المعاصر. ط1، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص: 251، 2016م.

⁵ للمزيد انظر، وجيه السيد، سرديات الرواية العربية، الكويت: أفق للتوزيع والنشر، ط1، ص: 152 - 156، 2014م.

⁶ محمد لطفي اليوسفي، فنتنة المتخيل، ط1، مج3، ص: 81 - 82، (د، ن)، 2002م.

قضت عليها ثورة 23 يوليو وفيها تصوير لانعدام الإحساس لدى هذه الارستقراطية بأي نوع من القيم الإنسانية أو الاعتبارات الأخلاقية، لقد كانت هذه الارستقراطية، وعلى رأسها الملك، تستبيح أي شيء في أي وقت ومع أي إنسان، لا تخشى ولا تحسب حساباً بالمصائر البشرية⁽⁷⁾

إن هذه الشخصيات التي التقت في سعيها إلى الاغتصاب وتحقيق المتعة، هي: شخصيات أرهاقها ضعفها أمام جبرية الفناء، فسعت إلى المواجهة على طريقها، طريقة الاغتصاب الذي وجدت فيه سبيلاً لإثبات قدرة الذات على الفعل، ولكن هذا الفعل يبقى فعلاً عبثياً سلبياً، لا يعطي للمواجهة فعلاً إنسانياً سامياً، كالذي نجده في فعل التحدي الذي ينهض به الصف الثالث من الشخصيات: "فالمرأة في قصص صبري موسى نموذج لذروة تحقيق المرأة استقلالها في الأجيال المتأخرة؛ المرأة محور الأحداث في قصص نجيب محفوظ والبدوي والسباعي وغيرهم من أدباء جيل الوسط... أما صبري موسى - شأن غالبية روائيين جيله - فقد دفع بالمرأة إلى مجالات العمل المختلفة، في علاقات متشابكة، تبين - بالضرورة - عن جوانب من نفسية المرأة، لم يكن المجتمع المغلق قد أتاح لها الظهور من قبل"⁽⁸⁾

شخصيات متحدية: Defying characters هي شخصيات أمنت بإمكانية تجاوز الإنسان لحدوده وتفوقه على ضعفه، فسعت إلى تحقيق الذات بواسطة الصراع والتحدي والحلم والطموح، نجد ذلك عند إيسا، الشاب الصحراوي الذي كان يحمل بداخله غضباً يدوياً غريزياً؛ دفعه إلى الوقوف إلى جانب الحق والعدل بطبعه لا بثقافته، فأخذ قرص الذهب الذي استخرجه العمال من المناجم لفائدة المستغلين، وذهب به إلى جده كوكا لوانكا، الذي أصبح جسده صخرة من كثرة التعبد؛ ليثبت له تواصل سيطرة أحفاده على الصحراء، ثم يعود بقرص الذهب إلى موضعه، فيتهم بالسرقة، فيضطر لإثبات براءته للمشي على النار، وهو في مواجهته هذه لا ييأس حتى تنتهي حياته نهايةً مأساوية...!! فقد أكلته الثعابين هو ومجموعة من العمال في بئر قديمة أرادوا إحياءها، وهذا العزم على التحدي الذي يجري في دماء إيسا قد ورثه عن جده كوكا لوانكا الذي تحدى الفناء بالتعب في أحد الكهوف؛ حتى تبيس جسده وتحول إلى صخرة تلهم الأحفاد: "وقف الغلام على الحافة يرقب إيسا وهو يغيب داخل الظلام العمودي المجوف.. لم يكن يسمع صوتاً، لم يرد عليه أحد وكان الظلام العمودي المجوف يبتلع نداءاته.. وأصابه جنون الخوف فأخذ يصرخ في فتحة البئر صراخاً مفعماً باليأس، وينادي بأقوى ما تستطيع حنجرته، دون أن يرد عليه أحد..."⁽⁹⁾

نذر حياته للانتقام من عروس البحر التي أفنت رجال قبيلته، من أمثال البحار المغامر عبدالله كيرشاب، فتحدى في سبيل ذلك الأخطار، حتى ساعده الحظ فوجد عروس البحر ميتة، فأخرجها بقاربه إلى الساحل، ليفخر بوفائه بوعده، ولكن انتقامه انتهى إلى مهزلة حينما وجد نفسه يواقع هذه السمكة الميتة ليسلي الملك وحاشيته، فذهب عقله، وانتهى يصطاد السمك من صحراء العطش. إن هذا الفعل الذي تتحول فيه أقوال الشخصية إلى حدث يسمى: "التسريد Friction" ...⁽¹⁰⁾

ويعد قبر الولي الصوفي أبي الحسن الشاذلي الموجود في صحراء الدرهب؛ رمزاً من رموز التحدي، فقد كان هذا الولي يرفع شعار أن "الجهاد الأكبر موجهاً والنفس"، ولكن جهاده لم يبق منه سوى قبر في الصحراء، يزوره المجذوبون، وتعشش فيه العصافير البرية.

7 فساد الأمكنة، (الملحق)، ص: 159

8 نفسه، ص: 176

9 للمزيد انظر، فساد الأمكنة، ص: 48 وما بعدها

10 للمزيد بهذا الخصوص، مصطلح: "تسريد" انظر، معجم السرديات. محمد القاضي وآخرون، تونس: دار محمد علي للنشر، ط1، ص: 90، 2010م.

إضافة إلى كل هؤلاء، يمثل نيكولا هذا القوقازي المغامر مثلاً للإنسان الذي لا توقفه الحدود ولا تصده السدود؛ فقد سافر من بلاد إلى بلاد، واستقر في صحراء الدرهب العجيبة التي استولت على جموحه؛ فخاض فيها صراع التشييد والتعمير، ولكنه انتهى إلى المأساة والعذاب، وانتهت مدينته إلى الدمار والخراب، فلم يبق له إلا أن يحولها إلى مسرح يمارس فيه طقوس العذاب والألم؛ لم تتوقف الشخصية، منذ بروب، عن فرض القضية نفسها على التحليل البنيوي للقصة. فالشخصيات، من جهة أولى (وبغض النظر عن الاسم الذي نسميها به: درامية، شخصية، عامل) تشكل مخططاً ضرورياً للوصف. وإن "الأفعال" المروية لتتوقف - ما إن تصبح خارجة عنه، عن أن تكون مدركة. ويمكننا أن نقول: إنه ليس ثمة قصة واحدة في العالم من غير شخصيات، أو على الأقل من غير "فواعل". ولكن هذه "الفواعل"، من جهة أخرى، وهي جد عديدة، لا يمكن أن تكون لا موصوفة، ولا مصنفة باسم مصطلحات "الشخصيات..."⁽¹¹⁾

والواضح من خلال هذه الأصناف الثلاثة من شخصيات رواية "فساد الأمكنة": أن حياة الإنسان هي مواجهة خاسرة لأحكام القدر، فهو ينتهي إلى الاندثار والفناء سواء استسلم لهذه الأحكام أم واجهها بالبحث عن ذاته في فعل الاغتصاب The act of rape، أو بالسّمو بنفسه في فعل التحدي Do the challenge، فلعل أسرار هذا القدر الإنساني المأسوي تتجاوز الإنسان، لتكمن في الأطر التي تحويه، أطر: الزمان، والمكان: "إن كل الشخصيات الرئيسية والثانوية قد أصابها مس الدرهب... نيكولا، ماريو، إيليا، إيسا، أبشر، والباقون... كلهم تلبستهم الصحراء ولفتهم في دثارها الأصفر الرملي..."⁽¹²⁾؛ تتعدد الشخصيات في الرواية، مما يدفع الكاتب إلى وضع مسافة بين لغته الخاصة ولغة شخصياته، بحيث لا تكون الشخصيات مجرد قناع لما يريده هو وما أن تولد هذه الشخصيات، ويتحدد الزمان والمكان والموضوع، حتى تستقل بمعنى ما عن الروائي novelist؛ أي تصبح لها حياتها وخياراتها، وتصبح لها لغتها أيضاً، أي تتكون لها ملامح ونبرة تميزها عن غيرها...⁽¹³⁾

الزمان: فناء البشر وبقاء الخير: The courtyard of human beings and the survival of good

صراع الإنسان مع الزمن هو صراع قديم، بدأ منذ وعي الإنسان بأثر حركة الزمن في حياته وهي حركة متواصلة، تفقد البدايات إلى النهايات، وقد حاول الإنسان الإفلات من هذه الحتمية، فتنفن في مواجهتها، ولكنه كان يخوض صراعاً مأسوياً؛ لأن الزمن كان دائماً يفتنيه، ولا يبقى منه سوى خيره، وقد سعى صبري موسى إلى تجسيد هذه الحقيقة في روايته؛ فالزمن في "فساد الأمكنة" زمن دائري Circular time؛ فالمكان والزمان عنصران متلازمان لا يفترقان، إلا أن المكان ثابت عكس الزمان المتحرك...⁽¹⁴⁾. فالرواية تبدأ بالنهاية التي ترسم مأساة نيكولا وهو يمارس طقوس عذابه، ثم تعود لتكشف عن المسار الذي قاد إلى المأساة، حتى تبلغ النهاية المأساة من جديد. وهذه الطريقة في تعامل الراوي مع الزمن إضافة إلى ما تتميز به من فنية كامنة في تكسير خطية الزمن؛ مما يفرض منطقاً جديداً في التعامل معه، فإنها بتركيزها على النهاية تلح على التنبيه إلى حقيقة الفناء بعد سيرورة العبث، وحقيقة المأساة بعد سراب الأمل؛ فحياة الإنسان ليست أكثر من مسافة قصيرة بين

¹¹ للمزيد انظر رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص. ترجمة: منذر عياشي، القاهرة: مركز الإنماء الحضاري، ط2، ص:62 وما بعدها، 2002م.

¹² فساد الأمكنة، ص:168.

¹³ للمزيد انظر، عبد الرحمن منيف، رحلة ضوء. ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص: 20 - 21، 2003م.

¹⁴ للمزيد بهذا الخصوص انظر، يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة. ط5، القاهرة: دار المعارف، ص:222، 1986م.

بكاء الولادة وبكاء الجنازة، مسافة تغطيها أحلام مستحيلة وآمال كاذبة: "وهكذا تنتهي قصة نيكولا... أو قصة الحلم أو الكابوس الذي عاش فيه ذلك المأساوي نيكولا، ذلك الذي كانت فاجعته في كثرة اندهائه، وكان كل شيء يحدث أمام عينيه جديداً يلقاه بفرحة الطفل، لدرجة إنه أبداً لم يتعلم من التجارب!!⁽¹⁵⁾

والزمن في "فساد الأمكنة": هو زمن الاستعمار الإنجليزي لمصر، وهو زمن كابوسي Time of nightmare، قام على فعل الاغتصاب والاستغلال وإذلال عزة اليد ومن سكان الصحراء؛ بعد سرقة خيراتهم لتوفير مواد التصنيع... فهو زمن فناء وتدمير، وإن قام على أحلام التقدم وشعارات التطور: "لم يفصل ريكور السرد عن التجربة المعيشة كما أنه لم يحصره بمنطقة الخيال، بل اشتغل على إعادة تأويل العلاقة بين السرد والحياة. فالسرد يكون ذا دلالة بالقدر الذي يرسم فيه خطوط التجربة الزمنية، ويؤكد ريكور في المقابل على أن الزمن يغدو زمناً إنسانياً بقدر ما هو متمفصل على نمط سردي، وأن السرد يبلغ دلالاته الكاملة حين يصبح شرطاً للوجود الزمني..."⁽¹⁶⁾

والزمن في "فساد الأمكنة": يفيض عن التاريخ، ويمتد إلى البدايات؛ متوسلاً إليها بالأسطورة⁽¹⁷⁾، فيصل إلى اللعنة الأولى التي حلت بجدنا آدم عند هبوطه إلى أرض العذاب مطروداً من سماء الخلود، ثم يتواصل بتواصل حلم العودة إلى عالم الجواهر الصعاد، ومفارقة أرض الكون والفساد مع الجدّ كوكا لوانكا الصالح، الذي فاضت روحه وهو يتعبد، وتحول جسده إلى صخرة، ولكن أمل العودة لم ينقطع بل استمر واشتد مع أولياء الصوفية؛ ويمثلهم في الرواية أبو الحسن الشاذلي الذي واصل طريق السابقين من أجل الوصول والاتصال: "ومن الأماكن التي وصفها الكاتب بصورة أضفت على المكان أبعاداً أسطورية ضريح أبي الحسن الشاذلي..."⁽¹⁸⁾

والحالمون بالعودة إلى عالم الملكوت الأعلى Kingdom of the Supreme Kingdom كثر ولكنهم جميعاً انتهوا إلى الفناء، ولم يبق منهم سوى أخبار يرويها الأجداد للأحفاد، مما يؤكد ضعف الإنسان عن مواجهة حتمية الفناء التي تملّحها حركة الزمن الدائمة، وعجزه عن تحقيق شهوة الخلود التي تشده إلى الحياة... في السرد العربي المعاصر، هناك أربعة نظم مختلفة في بناء الزمن وطريقة ترتيبه، وهذه الطرق هي: "التتابع، حيث ينظم الزمان على وفق تتابع متونها في الزمان، ويعود ذلك إلى تأثير فن الخبر التاريخي في الفن القصصي، وهذا النسق في الخطابات السردية يعد من أبسط أشكال النثر الحكائي التخيلي، وهو يخضع لمنطق السببية، حيث يكون السابق سبباً للاحق، ويكون اللاحق نتيجة لما سبقه."⁽¹⁹⁾

المكان⁽²⁰⁾: فناء البشر وبقاء الأثر: The courtyard of human beings and the survival of the impact

¹⁵ فساد الأمكنة، ص: 168

¹⁶ للمزيد انظر، رفيف صيداوي، الرواية العربية بين الواقع والتخييل. ط1، بيروت: دار الفارابي، ص: 48، 2008م.

¹⁷ للمزيد بهذا الخصوص انظر، رندا صبري، قدمت بحثاً باللغة الفرنسية بخصوص الجانب الأسطوري لهذه الرواية: "أصداء الأساطير والبعد القدسي للصحراء في فساد الأمكنة" أي لايف، ص: 156، ع33، 2013م.

¹⁸ للمزيد انظر، وجيه السيد، سرديات الرواية العربية. ص: 140 وما بعدها

¹⁹ للمزيد بخصوص بقية النظم في بناء الزمن، انظر وجيه السيد، سرديات الرواية العربية. ص: 30، 2014م.

²⁰ بالنسبة (لفساد الأمكنة) فقد أطلق اختيارها من عدد من الاعتبارات يقع في طبيعتها سوية الرواية المتقدمة، وقدرتها على استثارة عدد لاقت من القضايا الفكرية والفنية والتقنية المتعلقة بالصحراء والمكان في آن، ولا يغيب عن هذه الاعتبارات قلة الدراسات - وربما انعدامها - حول رواية نرى أنها على درجة كبيرة من الأهمية والجمال المتدفق خلال الرواية كلها، وخصوصاً في المستوى المكاني، وهناك أيضاً غناها اللافت بتنوع الشخصيات وثرائها الفكري والإنساني والقضايا الكبرى التي تتناولها في المستويات الأخرى كافة... للمزيد انظر، صلاح صالح، دراسة المكان الصحراوي في "فساد الأمكنة". فصول/مصر، مج12، ع3، ص: 273، 1993م.

إذا كان الزمان هو الذي يقيد حياة الإنسان بحتمية الفناء؛ فإن المكان أيضاً يحد من حريته ويقيد حركته، فيعمل طول حياته على الخروج من حدوده والانفلات من جاذبيته، وهكذا كانت حياة نيكولا قائمة على الترحال والتخليق فراراً من أسر المكان، ولكنه سرعان ما أدرك أن حدود الإنسان كامنة فيه، ولا تعود إلى المكان الذي يحتويه، فخاطب نفسه: "وما فائدة الرحيل يا نيكولا ما دمت تحمل داخله معك أينما حللت" فانقطع عن الترحال، واستقر بصحراء الدرهب التي أدهشته، واستولت على حواسه، ثم تحولت الدهشة إلى قوة في سواعده، تدفعه إلى العمل والتصميم على الإنشاء والتعمير. تحدث كولن ولسون عن هذا الصراع الحتمي، قائلاً: واستمر الروائيون الروس من بعد دستوفسكي في الانشغال بهذه المشاكل المتعلقة بمعنى الوجود الإنساني، بيد أنهم بافتقارهم إلى خاصية الهوس القريبة من الجنون التي يتمتع بها، فإن حلولهم تميل إلى السلبية. فهناك "جيخوف" الذي تبين قصصه ومسرحياته الناس الشرفاء وقد سقطوا في فخ السأم والإحساس باليأس...⁽²¹⁾

كان نيكولا يحفر الجبل بشقيه، جعلته يرى في هذا الحفر فعلاً من أفعال الإخصاب. وكان يعمق في التعمق حالماً بإدراك النهايات، وفي الوقت نفسه كان يحرص على إنشاء مدينة تحول الوحشة إلى أنس، وبعد أن اكتملت مدينته نزلت بها لعنة الخراب التي تحلّ، بكل المدن؛ فنتحول إلى أثر بعد عين ورسوم تشهد أن لا حقيقة غير الفناء، وتؤكد أن البناء والتخريب وجهان متلازمان للعبة إنسانية واحدة، هي: لعبة العبث، فضاء الصحراء في الرواية العربية: "هوية إنسانية لبعض الأفراد المثقفين، ومنهم فئة الروائيين المهمتين بها؛ ظهوراً مؤخراً، فكانت لهم هوية سردية، رغم تكونها في ظل تطور صناعي سريع، أخذ يفرغ العالم الإنساني المعاصر من القيم الروحية ويقوده إلى الدخول في صراع، هو ليس بمنأى عنه ولكنه لا يتمنى أن يكون جزءاً منه، ورغم ذلك لزم عليه أن يتخذ موقع الوسط، ليصل بمشكلة عالم مندثر وقضية خاصة..."⁽²²⁾

واعتماداً على ما سبق، كان المكان في رواية "فساد الأمكنة": شاهداً على حقيقة الفناء؛ لأنه كان "حافلاً بمخلفات البشر"، من: العظام، والجثث، وبقايا البيوت، والقبور، وأطلال المعابد، والقصور التي شيدها الإنسان، فبقيت أثراً تخبر عن ذهابه: "ويرجع مفهوم البنية العميقة إلى المدرسة التوليدية التحويلية، التي حاولت التمييز بين بنيتين للجملة؛ بنية سطحية وأخرى عميقة، حيث الأولى مرتبطة بالمستوى الظاهر عبر تتابع الكلام الذي يتلفظ به المتكلم، والثانية مرتبطة بمجموع القواعد التي أوجدت هذا التتابع، أو بكلام آخر، إنها تلك البنى الأساسية أو الأولية التي بالإمكان تحويلها بواسطة المكون التحويلي لتكون الجمل..."⁽²³⁾؛ وعلى النقيض من النمطين السابقين، يطالعنا في الرواية العربية الجديدة، نمط ثالث يمكن أن نعتبره بناء "مضاداً للبنية" Anti-structure وخالياً منها، ويمكن أن نصطلح عليه بالبناء المتقطع Intermittent construction، وبصفة عامة يمكن تعريف هذا النمط من البناء انطلاقاً من بنيته السردية Its narrative structure، حيث تتميز بنوع من المحكي The Trial الذي لا يمكن له أن يكتمل، ولا يمكن له أن ينبنى، ويكتفي بمقابلة "امتلاك الحلم" باستحالة الكشف عن العالم، لذلك تعد الأعمال الروائية التي تقوم على أساس هذا النمط، تبدو بـ: لا "نهاية، ولا جدل"، فكأنها تغييرات تنتظم فيما بينها...⁽²⁴⁾؛ ولمثل هذا العرض، قدم لحمداني رؤيته المتعلقة ببنية الرواية وتركيبها الداخليين، قائلاً: "نسمي النقد الروائي الذي ازدهر في إنجلترا خلال العشرينات من هذا القرن نقداً فنياً بسبب توجهه الواضح نحو دراسة الرواية من حيث بنائها،

21 للمزيد انظر، كولن ولسون، فن الرواية. ترجمة، محمد درويش، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ص: 66 وما بعدها، 2008م.

22 للمزيد بهذا الخصوص أنظر، أمينة محمد، فضاء الصحراء في الرواية العربية. ص: 10 وما بعدها، 2011م.

23 للمزيد بخصوص مستويات البنية العميقة، انظر عبد اللطيف محفوظ، البناء والدلالة في الرواية: مقارنة من منظور سيميائية السرد، مفهوم مستويات البنية العميقة، ص: 53 وما بعدها.

24 عبد الرحمن بوعلي، أشكال المعمار الفني في الرواية العربية الجديدة. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، ع5، ص: 18، 1995م.

وتركيبتها الداخليين، في الوقت نفسه الذي نراه يحتفظ بمعيار للقيمة يستمد من التفاعل الحاصل بين ذوق الناقد، وبناء العمل الروائي...⁽²⁵⁾

الخاتمة: تبدو رواية: "فساد الأمكنة"⁽²⁶⁾، رواية الفناء The story of the courtyard، هذا العدو الذي يطوق الإنسان، ويخفق فيه أحلام البقاء، وبذلك ينطبق الاسم على المسمى؛ لاسم حقيقة عالم الكون والفساد، وهي: حقيقة مأساة تفنن صبري موسى في التعبير عنها؛ بلغة استعارية، تتجاوز المعنى إلى معنى المعنى Meaning of meaning: "مما لا شك فيه أن النقد الأدبي ينطلق من قراءة النص، باعتباره نقطة الارتكاز الأولى، وهذا أمر لا يخفى على كل من اشتغل بهم النص، وهو ما أشار إليه الدكتور عبد العزيز حمودة في قوله: "النقد الأدبي عبر عصوره المختلفة على مدى عشرين قرناً كان ينطلق من قراءة النص باعتبارها نقطة الارتكاز الأولى...⁽²⁷⁾؛ ولعل هذا التداخل والتشابك، يخدم كينونة النص The existence of the text في مساراته كافة: "إن التحليل عملية اختلاء بالنص أو خلو له، بقدر ما هو عملية انصراف إليه... إنه عملية جدلية لا تستقيم إلا بتفاعل حديدها: الاكتشاف والمعرفة، الإقبال على النص لاكتشاف أقواله وأسراره، وتهيؤ للقائه بالمعرفة (بالتقافة المنهجية) التي لا بد منها كي يكون هذا اللقاء ناجحاً"⁽²⁸⁾

أعلن صبري موسى منذ البدء في العتبة النصية الأولى Text threshold، عن بداية المأساة والشقاء الإنساني المرير، ممثلاً بـ نيكولا، قائلاً: "اسمعوا مني بتأمل يا أحبابي، فإني معكم اليوم في وليمة ملوكية. سأطعمكم فيها غداءً جبلياً لم يعهده سكان المدن، بينما أحرك أرغن لساني الضعيف وأحكي لكم سيرة ذلك المأساوي نيكولا"⁽²⁹⁾... ما أعذب تلك الرقعة، تجري عليها تلك القطع المنحوتة بصورة تماثيل للناطق والساكن على درجات ومراتب، فالشاه فيها هو الملك، والفرس والفيل مركوبان له، والفرس وزيره والرخ أو الطابية حصنه وملجأه، أما البيادق فرعاياه... يخرجون جميعاً من كيس واحد، والشاه والفرس والفلاح... فيحظى كل منهم بنصيبه حسب قدره وقدرته... وكان قدر نيكولا هو الفشل، ولهذا كان الفشل نصيبه... وها هو على صليب عذابه الخفي يواصل هذا الفشل المقدر ويكرره...⁽³⁰⁾؛ بهذه القراءة الأولية، التي تحمل في طياتها عمقاً وافراً من الدلالات والإشارات الفنية، يلفت من خلالها نظر القارئ في عملية التدرج والتشويق البنائي Structural suspense، من خلال العتبات النصية الأولى للرواية، التي تشي أن هناك أمر مهم ينتظره وتحفزه لجملة من الموضوعات التي تحمل في طياتها الدهشة والانبهار.

وفي مشاهد عجيبة تتجاوز الواقع إلى الأسطورة: "وبدا السفح لـ نيكولا كبحر خرافي والثعابين أمواج فشعر بدوار. كانت الحركة الملتفة الدائرة قد بهرتة، واكتشف خلالها إلى أي مدى هو واهن البنيان في مواجهة تلك الصحراء الوحشية، بقوانينها حيث يهون الموت، وتعالج الأمراض بنبات الأرض، ويخفي الخجل، وتصبح المباشرة هي الأسلوب الصحيح"⁽³¹⁾؛ وبهذا الربط النصي، الواقعي والأسطوري Realistic and legendary، تتكون وحدة البناء في النص: "فإذا استعرتنا مقولة

²⁵ للمزيد بهذا الخصوص انظر، حميد لحداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص: 13، 1991م.

²⁶ قالوا عن فساد الأمكنة، رجاء النقاش، يوسف الشاروني، أبو المعاطي أبو النجا... وآخرون، للمزيد انظر، الملحق من الصفحات الأخيرة لذات الرواية: "فساد الأمكنة"، ص: 156 - 204م.

²⁷ للمزيد انظر، فايز تركي وفايز عثمانة، الوعي النقدي السردي بآليات الاتساق النصي في لغة القصة السعودية القصيرة: الواقع والمأمول، مجلة: أماراباك: الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، مجلة علمية عالمية فصلية محكمة مج8 ع26، ص: 56، 2017م.

²⁸ نجيب محفوظ والمناهج النقدية: القاهرة الجديدة نموذجاً، فصول/مصر، ع69، صص: 55 - 77، 2006م.

²⁹ للمزيد انظر، نبيل حداد، أزمة الشخصية المحورية بين العام والخاص في ثلاث روايات من الأردن. ص: 232، مؤتمراً للبحوث والدراسات: سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج10، ع2، 1995.

³⁰ انظر فساد الأمكنة، ص: 6، 12.

³¹ المرجع السابق، ص: 119.

البنويين التوليديين، إذن نحن أمام رواية ذات بنية مزدوجة الدلالة Double sign structure، وذلك انعكاس للرؤية الأسطورية...⁽³²⁾

وفي وقائع غريبة تتجاوز الأحداث إلى الكوابيس؛ كوابيس الشعور بالذنب والخطيئة: "فذاب بالوهم وعاشه في حرارة ونشوة، فأصبح حقيقة، وسقط الواقع وضاع خلال تلك الساعات التي استغرقتها غيبوبته... وهكذا وقف مبهوتاً أمام فراش إيليا ابنته، يحرق في جسدها المطروح والمنتهك ممثلاً بالشعور بأنه هو الذي انتهكها..."⁽³³⁾

عبرت الرواية في بنيتها العميقة عن: جوهر مأساة الإنسان The essence of human tragedy، الذي عاش يتعذب بين ذنب مقدر Guilt is estimated، وفناء مجبر And a forced courtyard، وغفران منشود And forgiveness is desired، وخلص مفقود And salvation is missing: "إن حركة الرواية تقوم على الاغتصاب... اغتصاب الطبيعة... اغتصاب الصحراء والبحر والجبل... ثم اعتصاب الانسان قبل أي شيء آخر..."⁽³⁴⁾؛ فكانت بعبارة صبري موسى: "موالاً حزيناً يسمح بالبكاء على كل شيء..."⁽³⁵⁾

المصادر والمراجع:

- بارت رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص. ترجمة: منذر عياشي، ط2، حلب: مركز الإنماء الحضاري، 2002م.
- الدرجة الصفر للكتابة. ترجمة: محمد برادة، ط2، بيروت: دار الطليعة، 1982م.
- برنس جيرالد، المصطلح السردى، ت: عابد خزندار. ط1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003م.
- بنكراد سعيد، سيميولوجية الشخصيات السردية. ط1، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2003م.
- بروب فلاديمير، مورفولوجية الحكاية الشعبية الخرافية الروسية. ت: إبراهيم الخطيب، ط1، الدار البيضاء، 1986م.
- بو عزة محمد، تحليل النص السردى: تقنيات ومفاهيم. ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010م.
- تهاني عبد الفتاح شاكور، السيرة الذاتية في الأدب العربي. ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002م.
- السيد وجيه، سرديات الرواية العربية، ط1، الكويت: أفق للتوزيع والنشر، 2014م.
- صيداوي رفيف، الرواية العربية بين الواقع والتخييل. ط1، بيروت: دار الفارابي، 2008م.
- العيد يمى، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي. ط1، بيروت: دار الآداب، 1988م.
- . فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، ط1، بيروت: دار الآداب، 1998م.
- باشلار غاسطون، جدلية الزمن. ترجمة: خليل أحمد خليل، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، 1982م.
- القاضي محمد وآخرون...، معجم السرديات. ط1، تونس: دار محمد علي للنشر، 2010م.
- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط5، القاهرة: دار المعارف، 1986م.
- لحمداني حميد، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي. ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991م.
- محفوظ عبد اللطيف، البناء والدلالة في الرواية: مقارنة من منظور سيميائية السرد. ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010م.
- محمد أمينة، فضاء الصحراء في الرواية العربية. ط1، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2011م.
- مرشدة عبد الرحيم، الفضاء الروائي: الرواية في الأردن نموذجاً. ط1، عمان: وزارة الثقافة، 2002م.
- منيف عبد الرحمن، رحلة ضوء. ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص: 20 - 21، 2003م.

³² للمزيد انظر، مدحت الجبار، الرؤية الأسطورية في عالم فساد الأمكنة، مجلة فصول/مصر، مج2، ع2، صص: 278 - 284، 1982م.

³³ فساد الأمكنة، (الملحق)، ص: 168.

³⁴ نفسه، (الملحق) ص: 159.

³⁵ يعتمد الروائي في تصويره على التصور والخلق، ونهاية الرواية تكون غالباً مجهولة لدى القارئ... للمزيد بهذا الخصوص انظر، تهاني عبد الفتاح شاكور، السيرة الذاتية في الأدب العربي. ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص: 22، 2002م.

- موسى صبري، فساد الأمكنة. ط1، بيروت: دار التنوير ودار المثلث، 1982م.
- ميهوب محمد آيت، الرواية السيرة ذاتية في الأدب العربي المعاصر. ط1، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، 2016م.
- ولسون كولن، فن الرواية. ترجمة: محمد درويش، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008م.
- اليوسفي محمد لطفي، فتنة المتخيل. ط1، المجلد الثالث، دن، 2002م.

الدوريات:

- إبراهيم عبدالله، بناء السرد في الرواية الأردنية المعاصرة. أفكار، ع135، صص: 33-56. 1999م.
- بو علي عبد الرحمن، أشكال المعمار الفني في الرواية العربية الجديدة. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، المغرب، ع5، صص: 9-24، 1995م.
- الجيار مدحت، الرواية الأسطورية في عالم فساد الأمكنة، مجلة فصول/مصر، مج2، ع2، صص: 278-284، 1982م.
- حداد نبيل، أزمة الشخصية المحورية بين العام والخاص في ثلاث روايات من الأردن. ص: 232، مؤتم للبحوث والدراسات: سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج10، ع2، 1995.
- صبري رندا، "أصداء الأساطير والبعد القدسي للصحراء في فساد الأمكنة" (البحث باللغة الفرنسية) آليف، ص: 156، ع33، 2013م.
- صلاح صالح، دراسة المكان الصحراوي في "فساد الأمكنة". فصول/مصر، مج12، ع3، صص: 312-273، 1993م.
- عثمانة فايز وفايز تركي، الوعي النقدي السردية بآليات الاتساق النصي في لغة القصة السعودية القصيرة: الواقع والمأمول، مجلة: أماراباك: الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، مج8 ع26، صص: 53-80، 2017م.
- مغربي فاروق إبراهيم، نجيب محفوظ والمناهج النقدية: القاهرة الجديدة نموذجاً، فصول/مصر، ع69، صص: 55-77، 2006م.